وبعد أن شرح الحق سبحانه أحوال أهل القُرْب والسعادة ، وأهل البُعْد والشقاء ، أراد عز وجل أن يضرب لنا مثلاً يوضح فيه الفارق بين منهج السعداء الذين عاشوا بمنهج الله ، ومنهج الأشقياء الذين اتبعوا مناهج شتى غير منهج الله ، فقال سبحانه :

﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا(١) ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٢٤﴾ تُؤْتِىٓ أُكُلَهَا(٢) كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾

والمَثَل هو الشيء الذى يوضح بالجلى الخفى . وأنت تقول لصديق لك : هل رأيتَ فلاناً ؟ فيقول لك : لا لم أرَه ؛ فتقول له : إنه يُشبه صديقنا علان . وهكذا توضح أنت مَنْ خَفِى عن مُخَيلة صديقك بمَنْ هو واضح الصورة فى مُخَيلته . .

والحق - سبحانه وتعالى - يضرب لنا الأمثال بالأمور المُحسَّة ، كى ينقل المعانى إلى أذهاننا ؛ لأن الإنسان له إلْفٌ بالمُحسِّ ؛ وإدراكات حواسه تعطيه أموراً حسية أولاً ، ثم تحقق له المعانى بعد ذلك .

---

(١) أصل الشيء : أساسه وقاعدته التى يقوم عليها ويكون فى أسفله . [القاموس القويم ٢١/١] .

(٢) الأكل : ثمر النخل والشجر ، وكل ما يؤكل فهو أكل . [لسان العرب - مادة : أكل] .

ويقول الحق سبحانه :

﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا..(٢٦)﴾ [البقرة]

وقد قال الكافرون : أيضرب الحق مثلاً ببعوضة ؟ ذلك أنهم لم يعرفوا أن البعوضة لها حياة ، وفيها حركة كأىّ كائن ؛ وتركيبها التشريحى يتشابه مع التركيب التشريحى لكل الأحياء فى التفاصيل ؛ ويؤدى كل الوظائف الحيوية المطلوبة منه .

ولا أحدَ غير الدارسين لعلم الحشرات يمكن أن يعرف كيف تتنفس ، أو كيف تهضم طعامها ؛ ولا كيفية وجود جهاز دموىّ فيها ؛ أو مكان الغُدد الخاصة بها ؛ وهى حشرة دقيقة الصنع .

وهو سبحانه ضرب الأمثال الكثيرة ليُوضّح الأمر الخفىّ بأمر جلىّ . ومن بعد ذلك ينتشر المثل بين الناس . ونقول : إن كلمة « ضرب » مثلها مثل « ضرب العملة » ، وكان الناس قديماً يأتون بقطع من الفضة أو الذهب ويُشكّلونها بقدْر وشكل مُحدّد لتدُل على قيمة ما ، وتصير بذلك عُمْلة متداولة ، ويُقَال - أيضاً - « ضُرِب فى مصر » أى : اعتمد وصار أمراً واقعاً . وكذلك المثل حين ينتشر ويصبح أمراً واقعاً .

والمثل الذى يضربه الحق سبحانه هنا هو الكلمة الطيبة ؛ ولها أربع خصائص :

﴿كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ..(٢٤)﴾ [إبراهيم]

أى : تعطيك طيباً تستريح له نفسُك ؛ إما منظراً أو رائحة أو ثماراً ؛ أو كُل ذلك مجتمعاً ؛ فقوله :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يُوحى بأن كُلّ الحواس تجد فيها ما يُريحها ؛ وكلمة « طيبة » مأخوذة من الطِّيب فى جميع وسائل الإحساس .

فالخاصية الأولى ، أنها شجرة طيبة ، أما الخاصية الثانية فهى أن أصلها ثابت ، كإيمان المؤمن المحب ، والثالثة أن فروعها فى السماء ، وهذا دليل أيضاً على ثبات الأصل وطيب منبتها .

أما الخاصية الرابعة فهى أن تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها ، أى : فيها عطاء المدد الذى لا يعرف الحد ولا العدد ، وهى تدل على صفات المؤمنين المحبين .

وبما أنها شجرة طيبة ؛ فهى كائن نباتىّ لا بُدّ لها من أن تتغذّى لتحفظ مُقوِّمات حياتها . ومُقوِّمات حياة النبات توجد فى الأرض ، فإنْ كانت الشجرة مُخَلْخَلة وغير ثابتة فهى لن تستطيع أن تأخذ غذاءها .

ولذلك يقول الحق سبحانه عن تلك الشجرة :

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ..(٢٤) ﴾ [إبراهيم]

وكلنا نظن أن الشجرة تأخذ غذاءها من الجذور فقط ؛ ولكن الحقيقة العلمية تؤكد أن الشجرة تأخذ خمسة بالمائة من غذائها عَبْر

الجذور ؛ والباقى تأخذه من الهواء ، وكلما كان الهواء نظيفاً فالشجرة تنمو بأقصى ما فيها من طاقة حتى تكاد أن تبلغ فروعها السماء .

أما إنْ كانت البيئة غيرَ نظيفة وملوّثة ؛ فالهواء يكون غيرَ نظيف بما لا يسمح للشجرة أن تنمو النمو المناسب ؛ فتمُرُّ الأغيار غير المناسبة على الشجرة ، فلا تستخلص منها الغذاء المناسب ، ولا تنمو النمو المناسب .

اللهم إلا إذا نزل عليها المطر فيغسل أوراقها .

إذن : فقول الحق سبحانه :

﴿ أَصْلُهَا ثَابِتٌ .. (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يعنى : أنها تأخذ من الأرض .

وقوله :

﴿ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ .. (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

يُبيِّن أنها تأخذ من أعلى .

ويتابع سبحانه :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

والأُكُل هو ما يُؤْكل ويُتمتَّع به ، ولكنّا لا نأخذ المعنى هنا على ما يُؤْكل بالفم فقط ؛ ذلك أن هناك أشجاراً ونباتات طيبة ؛ لأن مزاجَ الكون العام يتطلبها ؛ فالظل مثلاً يُستفاد منه ؛ وكذلك هناك أشجار يتفاعل وجودها مع الأثير ؛ ويأخذ منها رائحة طيبة .

والمثل فى ذلك : الطفل البدوىّ الذى شاهد نخيل جيرانه مثمراً بالبلح ، ولكن النخلة التى يملكونها غير مثمرة ، وتساءل : لماذا ؟ وذهب ليقطعها ، فلحقه والده ومنعه من ذلك ، وقال له : إن نخلتنا هى الذكر الذى يُنتج اللقاح اللازم لبقية النخيل كى تثمر .

ولذلك فأنا لا أوافق المفسرين الذين ذهبوا إلى تفسير قوله الحق :

﴿ كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ .. (٢٤) ﴾ [إبراهيم]

بأنها مثل شجرة التفاح وغيرها من الأشجار المثمرة ؛ ذلك أن كل شجرة حتى ولو كانت شجرة حَنْظل فهى طيبة بفائدتها التى أودعها الحق إياها ؛ فشجرة الحنظل نأخذ منها دواءً - قد يكون مرير الطَّعْم - لكنه يشفى بعضاً من الأمراض بإذن الله .

ذلك أن كل ما هو موصوف بشجرة له مهمة طيِّبة فى هذا الكون . وقَوْل الحق سبحانه :

﴿ تُؤْتِى أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

يدلُّنا على أن هناك قدراً مشتركاً بين الشجر كله ؛ مثمراً بما نراه من فاكهة أو غير ذلك .

وقد نبَّهنا العلْم الحديث إلى أن كل خُضْرة إنما تُنَقِّى الجو بما تأخذ منه من ثانىَ أوكسيد الكربون ، وبما تضيف لنا من أوكسجين ؛ وتستمر الخضرة فى ذلك نهاراً ؛ وتقلب مهمتها بإرسال ثانى أوكسيد الكربون ليلاً وامتصاص الأوكسجين ، وكأنها مُبَرْمجة على فَهْم أن النهار يقتضى الحركة .

ويحتاج الكائن الحى فيه إلى المزيد من وقود الحركة وهو الأوكسجين ؛ والإنسان أثناء الحركة يستهلك كمية كبيرة من

الأوكسجين ؛ ونجد مَنْ يصعد سُلّماً ينهج لأن رئتيه تحاولان امتصاص أكبر قَدْر من الأوكسجين ليؤكسد الدم ، وينتج الطاقة اللازمة للصعود . وهكذا نجد كل خُضْرة إنما تقوم بوظائف محددة لها سلفاً من قِبَل الخالق الأعلى .

ولذلك اختلف العلماء عند تفسير :

﴿ تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ .. (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

فمنهم مَنْ قال : إن « الحين » يُطْلق على اللحظة ؛ مثل قول الحق سبحانه :

﴿ فَلَوْلا إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ[1] (٨٣) وَأَنتُمْ حِينَئِذٍ تَنظُرُونَ (٨٤) ﴾ [الواقعة]

وقال مُفسِّر[2] آخر : إن « الحين » يُقصد به الصباح والمساء ، والحق سبحانه هو القائل :

﴿ فَسُبْحَانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ وَحِينَ تُصْبِحُونَ .. (١٧) ﴾ [الروم]

وأقول : فلننتبه إلى أن « الحين » هو الوقت الذي يحين فيه المقدور ؛ فإذا كان الحين هو لحظة بلوغ الرُّوح إلى الحُلْقوم ؛ فهذه اللحظة هي المراد بـ « الحين » هنا ، وإذا كان المقصود بها زمناً

(١) الحلقوم : الحلق . وهو علمياً الآن : هو تجويف خلف تجويف الفم وفيه ست فتحات : فتحة الفم ، وفتحتا المنخرين ، وفتحتا الأذنين ، وفتحة الحنجرة ويمر الطعام والشراب من الحلقوم إلى المرىء ، أما النفَس فهو يمر من الحلقوم إلى الحنجرة . [القاموس القويم ١٦٧/١] .

(٢) ذكر القرطبي في تفسيره (٣٦٩٨/٥) أقوالاً : « قال الربيع : « كل حين » غدوة وعشية . وقاله ابن عباس . وقال الضحاك : كل ساعة من ليل أو نهار شتاء وصيفاً يؤكل في جميع الأوقات » . ثم قال : « وهذه الأقوال متقاربة غير متناقضة ، لأن الحين عند جميع أهل اللغة إلا من شذ منهم بمعنى الوقت يقع لقليل الزمان وكثيره » .

أطول من ذلك ؛ صباحاً أو مساء ؛ فهذا الزمن ينسحب عليه معنى الحين .

والحق سبحانه هو القائل :

﴿ وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ .. ﴿١٧٧﴾ ﴾ [البقرة]

والبأس يعني الحرب ؛ ومُدة الحرب قد تطول . وكذلك يقول الحق سبحانه :

﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [الأعراف]

وهكذا يكون معنى « الحين » هنا هو الأجل غير المُسمّى الذي يمتد إلى أن تتبدّل الأرضُ غيرَ الأرض والسماء غير السماء . إذن : فلا يوجد توقيت مُحدد المدة يمكن أن نُحدد به معنى « حين » .

ويذيل الحق سبحانه الآية الكريمة التي نحن بصدد خواطرنا عنها بقوله :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾ ﴾ [إبراهيم]

وضَرْب المثل معناه إيقاع شيء صغير ليدل على شيء كبير ؛ أو بشيء جليّ ليدل على شيء خفيّ ؛ ليُقرِّب المعنويات إلى وسائل الإدراكات الأولى ، وهي مُدْركات الحِسّ من سمع وبصر وبقية وسائل الإدراك .

وحين تأتي المعاني التي تناسب الطموح العقلي ؛ فالإنسان يتجاوز مرحلة الحِسّ إلى المعلومات المعنوية ؛ فيقربها الحق سبحانه بأن يضرب لنا الأمثال التي توصل لنا المعنى المطلوب إيصاله .

والحق سبحانه لا يستحى - كما قال - أنْ يضربَ مثلاً بالبعوضة وما فوقها[1] . والبعض من المستشرقين يقول : ولماذا لم يَقُلْ « وما تحتها » ؟ .

ونقول لمَنْ يقول ذلك : أنت لم تفهم اللغة العربية ؛ لذلك لم تستقبل القرآن بالملَكة العربية ؛ ذلك أن المثَل يُضرَب بالشيء الدقيق ؛ وما فوق الدقيق هو الأدقُّ .

والحق سبحانه يضرب لنا المثَل للحياة الدنيا ، وهى الحياة التى من لَدُن خَلْق الله للإنسان ؛ ذلك أنه كانت هناك أجناسٌ أخرى قبل الإنسان ، وهو سبحانه هنا يُوضِّح لنا بالمثَل ما يخص الحياة من لحظة خَلْق آدم إلى أنْ تقومَ الساعة ، وهو يطويها - تلك الحياة الطويلة العريضة التى تستغرق أعمار أجيالٍ - ويعطيها لنا فى صورة مَثَلٍ موجز ، فيقول لنا :

﴿ وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا[2] تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا (٤٥) ﴾ [الكهف]

---

(١) يقول تعالى : ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا .. (٢٦) ﴾ [البقرة] قال ابن كثير فى تفسيره (٦٤/١) : « معنى الآية أنه تعالى لا يستنكف أن يضرب مثلاً ما أى مثل كان بأى شىء كان صغيراً أو كبيراً ، وما ههنا للتقليل . وقال الربيع بن أنس : هذا مثل ضربه الله للدنيا ، أن البعوضة تحيا ما جاعت ، فإذا سمنت ماتت ، وكذلك مثل هؤلاء القوم الذين ضرب لهم هذا المثل فى القرآن إذا امتلأوا من الدنيا رياً أخذهم الله عند ذلك ».

(٢) الهشيم : النبت اليابس المتكسر . وهو ما يبس من الورق وتكسر وتحطم ، فبلغ الغاية فى اليبس حتى بلغ أن يُجمع . [لسان العرب - مادة : هشم] .

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة كلها فى هذا المثل من ماء ينزل ونبات ينمو لينضج ثم تذروه[1] الرياح .

وأيضاً يقول الحق سبحانه :

﴿ اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ[2] أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ[3] فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَكُونُ حُطَامًا .. (٢٠) ﴾ [الحديد]

وهكذا يطوى الحق سبحانه الحياة الدنيا بطُولها وعَرْضها فى هذا المَثل البسيط لنرى ما يُوضِّح لنا المعانى الخفية فى صورة مُحسَّة بحيث يستطيع العقل الفطرى أن يُدرِك ما يريده الله منها .

ونعلم أن المُحسَّات تدرك أولاً بعض الأشياء ؛ ثم ترتقى إلى مرتبة التخيُّل ؛ ثم يأتى التوهُّم ؛ فمراحل الإدراك للأشياء الخفية هى الحس أولاً ؛ ثم التخيل ثانياً ؛ ثم التوهم ثالثاً .

والتخيُّل هو أن تجمع صورة كلية ليس لها وجود فى الخارج ؛ وإنْ كانت مُكوَّنة من مادة وأشياء موجودة فى هذا الخارج . والمَثل على ذلك هو قول الشاعر الذى أراد أنْ يصف الوَشْم على يد حبيبته ، فقال :

---

(١) ذرا الهواء الشىء يذروه ذرواً : أطاره وبدده . [القاموس القويم ١/٢٤٣] .

(٢) الغيث : المطر . قال تعالى : ﴿ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ .. (٢٠) ﴾ [الحديد] يحتمل أنه كمثل مطر أعجب الكفار ما خرج بسببه من نبات ، ويحتمل أنه كزرع أعجب الكفار نموه ونباته . [القاموس القويم ٢/٦٥] .

(٣) أهاجت الريح النبت : أيبسته . أى جعلته جافاً قد ذهبت رطوبته . [لسان العرب - مادة : هيج] .

خـــوض كـأنَّ بَنـانَهـــا فى نَقْشـه الوَشْمِ المُـزرد[1]
سَـمكٌ مـن البِلَّــور فى شَـبَكٍ تكوَّن من زَبرجَــد[2]

وحـين تبحث فى الصـورة الكليـة لتلك الأبيـات من الشعـر ؛ لن تجـدها مـوجـودة فى الواقع ؛ ولكـن الشـاعـر أوجـدها من مُكوِّنات ومُفْـردات موجودة فى الواقع ؛ فالسـمك موجود ومـعروف ؛ والبلُّور موجود ومعروف ؛ وكذلك الشَّبك والزبرجد ، وقام الشاعر بنسج تلك الصورة غير المـوجودة من أشياء موجودة بالفـعل ، وهذا هو الخيال الذى يُقرِّب المعنى .

والتوهُّم يختلف عـن الخيال ؛ فإذا كان التـخيُّل هو تكوين صورة غير موجودة فى الواقع من مفردات موجودة فى هذا الواقع ؛ فالتوهُّم هو صـورة غـير موجـودة فى الواقع ، ومُـكوَّن من مـفردات غـير موجودة فى الواقع .

والحق سبحانه يقول لنا عن الجنة :

﴿ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الأَنفُسُ وَتَلَذُّ الأَعْيُنُ .. (٧١) ﴾ [الزخرف]

ويشرح الرسول ﷺ ذلك بمذكرة تفسيرية ، فيقول : « فيها مَا لا عَيْنٌ رأتْ ، ولا أذن سمعتْ ، ولا خَطَر على قَلْب بشر »[3] .

---

(١) الخوضـة : اللؤلؤة . والبنان : أطراف الأصابـع . والزَّرْد : هو تداخل حلق الدرع بعضـها فى بعض كالشبكة .

(٢) الزبرجد : الزمرد . [لسان العرب ـ مادة : زبرجد] .

(٣) أخرج مـسلم فى صـحيحه (٢٨٢٤) من حـديث أبى هريرة رضى الله عنه عن النبى ﷺ قال : قـال الله عز وجل : وأعددت لعـبادى الصالحـين ما لا عين رأت ، ولا أذن سـمعت ، ولا خطر على قلب بشر ، مصداق ذلك فى كتاب الله : ﴿ فَلا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم مِّن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٧) ﴾ [السجدة] » .

والعَيْن وسيلة إدراك وحسٌّ ؛ وكذلك الأذن ، أما ما لا يخطر على القلب فهو ليشرحه الخيال أو الوَهْم .

وهكذا نعلم لماذا يضرب الله لنا الأمثال ؛ ليُوجِز لنا ما يشرح ويُوضِّح بأشياء قريبة من الفهم البشرى .

وأنت حين تريد أن تكتب لصديق ؛ فقد تُمسك الورقة والقلم وتُدبِّج رسالة طويلة ؛ ولكن إنْ كنتَ تملك وقتك فستحاول أنْ تُركِّز كل المعانى فى كلمات قليلة .

وكلنا يذكر ما كتبه سعد زغلول[1] زعيم ثورة ١٩١٩ المصرية لواحد من أصدقائه بعد أن سطَّر له رسالة فى خمس صفحات ؛ وأنهاها : « إنى أعتذر عن الإطالة فى الخطاب ، فلم يكُنْ عندى وقت للإيجاز » وذلك لأن مَنْ يُوجِز إنما يضع معانى كثيرة فى كلمات قليلة .

وحين طلب أحد القادة المسلمين النُّصْرة من خالد بن الوليد ؛ وكان القائد الذى يطلب المساعدة مُحَاصَراً ؛ وأرسل لخالد بن الوليد كلمتين اثنتين « إياك أريد » ، وهكذا اختصر القائد المحاصر ما يرغب إيصاله إلى مَنْ ينجده ، بإيجاز شديد .

والشاعر يقول :

إذَا أرادَ الله نَشْـــرَ فَضِيلَةٍ   طُـوِيَتْ أتاحَ لَهَا لِسَانَ حَسُـود
لَوْلاَ اشتعالُ النَّارِ فيمَا جَاوَرَتْ   مَا كَانَ يُعْرَف طِيبُ عَرْفِ[2] العُودِ

(١) هو : سعد إبراهيم زغلول ، ولد فى « إبيانة » من قرى « الغربية » عام ١٨٥٧م تعلم فى كتّاب القرية ، ودخل الأزهر ، واتصل بالسيد جمال الدين الأفغانى ، تولى وزارة المعارف ووزارة الحقانية (العدل) ، أصبح رمزاً للثورة بعد نفيه إلى مالطة . توفى بالقاهرة عام (١٩٢٧م) . [الأعلام للزركلى ٨٣/٣] عن ٧٠ عاماً .

(٢) العرف : الريح : طيبة كانت أو خبيثة . وقال ابن سيده : العرف ، الرائحة الطيبة والمنتنة . [لسان العرب ـ مادة : عرف] .

أى : أنه إذا كانت هناك فضيلة مكتومة نسيها الناس ؛ فالحقُّ سبحانه يتيح لها لسانَ حاسدٍ حاقدٍ ليثرثر وينبش ويُنقِّب ؛ لتظهر وتنجلى ؛ مثلما يُوضَعُ خشب العود - وهو من أرْقَى ألوان البخور - فى النار ، فينتشر عطْره بين الناس .

وهكذا ضرب الشاعر المَثَل ليُوضِّح أمراً ما للقارىء أو السامع .

ويقول الشاعر ضارباً المَثَل أيضاً :

وإذَا امْرؤٌ مدحَ امْرءًا لِنَوالِه[1] وَأطَالَ فِيهِ فَقَدْ أطَالَ هِجَاءَهُ
لَوْ لَمْ يُقَدِّر فيه بُعْد المُسْتقَى عند الوُرودِ لَمَا أطَالَ رِشَاءَهُ[2]

والمقاييس العادية تقول : إن المرء حين يمدح أحداً لفترة طويلة ، فهذا يعنى الرِّفْعة والمجد للممدوح . ولكن حين يقرأ أحدٌ قول هذا الشاعر قد يتعجَّب ويندهش ، ولكنه يتوقف عند قول الشاعر أن الماء لو كان قريباً فى البئر ؛ لأخرجه العطشان بدلو مربوط بحبل قصير ؛ ولكن إنْ كان الماء على بُعْد مسافة فى البئر فهذا يقتضى حبلاً طويلاً لينزل الدلو إلى الماء .

وهذا يعنى أن طول المدح إنما يُعبِّر عن فظاظة الممدوح الذى لا يستجيب إلا بالثناء الطويل ؛ ولو كان الممدوح كريماً حقاً لاكتفى بكلمة أو كلمتين فى مدحه .

---

(١) النوال : العطاء . وأناله معروفه ونوَّله : أعطاه معروفه . [لسان العرب - مادة : نول] .
(٢) الورود : الحضور والوصول للماء لتشرب . والرشاء : الحبل . يُوصل به إلى الماء فى البئر كما يوصل بالرشوة إلى ما يطلب من الأشياء . [لسان العرب - مادة : رشو] .

وهكذا يكون ضَرْبُ المثل توضيحاً وتقريباً للذهن .

وهنا قال الحق سبحانه :

﴿ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (٢٥) ﴾ [إبراهيم]

والتذكر معناه أن شيئاً كان معلوماً بالفطرة ؛ ولكن الغفلة طرأتْ ؛ فيأتى المَثَلُ ليُذكِّر بالأمر الفطرىّ .

وبعد أن ضرب الحق سبحانه المثل بالكلمة الطيبة بياناً لحال أهل القُرْب من الله والود معه واتباع منهجه ، أراد أنْ يذكُرَ لنا المقابل ، وهو حال الأشقياء الذين أعرضوا عن الله ، وعن منهجه ، فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ وَمَثَلُ كَلِمَةٍ خَبِيثَةٍ كَشَجَرَةٍ خَبِيثَةٍ ٱجْتُثَّتْ(١) مِن فَوْقِ ٱلْأَرْضِ مَا لَهَا مِن قَرَارٍ (٢٦) ﴾

وحين نقارن الكلمة الخبيثة بالكلمة الطيبة سنكتشف الفارق الشاسع ؛ فالكلمة الخبيثة مُجْتثَّة من فوق الأرض ؛ والجُثَّة كما نعلم هى الجسد الذى خرجتْ منه الروح ، ومن بعد أن يصبح جُثة يصير رِمَّة ؛ ثم يتحلَّل إلى عناصره الأولى .

إذن : فالاجتثاث هو استئصالُ الشىء من أصله وقَلْعه من جذوره ، أما المقابل فى الشجرة الطيبة فأصلها ثابت لا تُخلخله ظروف أو أحداث ، والكلمة الخبيثة بلا جذور لأنها مُجْتثَّة ؛ وليس لها قَرار تستقر فيه .

---

(١) جثَّ الشيء : قطعه أو قلعه من جذوره . واجتثه : استأصله أو اقتلعه . [القاموس القويم ١/١١٧] .

وحين تكلَّم المُفسِّرون عن الشجرة الطيبة منهم مَنْ قال إنها النخلة لأن كُلَّ ما فيها خير ؛ فورقها لا يسقط ، ويبقى دائماً كَظلٍّ وكل ما فيها يُنتفَع به .

فنحن - على سبيل المثال - نأخذ جذع النخلة ونصنع منه أعمدة فى بيوت الرِّيف ، وجريد النخل نصنع منه الكراسى ؛ والليف الموجود بين الأفرع نأخذه لنصنع منه الحبال ؛ والخوص نصنع منه القُفف .

والذين حاولوا أن يُفسِّروا « الشجرة الخبيثة » بأنها شجرة الحَنْظل ، أو شجرة التين ، أو شجرة الكُرَّات ؛ لكل هؤلاء أقول : لقد خلقها الحق سبحانه لتكون شجرة طيبة فى ظروف احتياجنا لها ؛ لأنك حين تنظر إلى الكون ستجد أن مزَاجه مُتنوِّع ؛ ومُقوِّمات الحياة ليستْ هى الأكل والشرب فقط ؛ بل هناك توازن بيئىّ قد صمَّمه الحق تعالى ، وهو الأعلم منَّا جميعاً بما خلق ؛ ولم يخلق إلا طَيِّباً .

وكل شىء فى الكون له عطاء مستمر يُشِع فى الجو ، والمثَل هو تساقط أوراق الشجر التى تُعيد الخصْب مرة أخرى إلى الأرض . وكلها أمور يُبديها الحق سبحانه ولا يبتديها ، أى : يُظهرها بعد أنْ كانت موجودة أزلاً ومَخْفية عنَّا .

وهو جَلَّ وعلاَ يرفع قوماً ويَخفض قوماً ؛ وهو القائل عن ذاته :

﴿ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِى شَأْنٍ (٢٩) ﴾ [الرحمن]

وكلُّنا نعلم أن اليوم عند منطقة ما يبدأ فى توقيت مُعيَّن ، وينتهى فى توقيت مُعين ؛ وتختلف المناطق الجغرافية وتختلف معها

بدايات أىِّ يوم من منطقة إلى أخرى ؛ فبعد لحظة من بداية يومك يبدأ يوم آخر فى منطقة أخرى ؛ وهكذا تتعدد الأيام وبدايات النهار والليل عند مختلف البشر والمجتمعات .

ولذلك فحين نسمع قول الرسول ﷺ : « إن الله عز وجل يبسط يده بالليل ليتوب مُسىء النهار ، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسىء الليل حتى تطلع الشمس من مغربها »[1] .

فمعنى ذلك أن يَد الله مبسوطة دائماً ، ذلك أن الليلَ يبدأ فى كل لحظة عند قَوْم ، ويبدأ النهار عند قوم فى نفس اللحظة ؛ ويتتابع ميلاد الليل والنهار حَسْب دورانِ الشمس حول الأرض .

وهكذا لا يجب أن نظلم شجرة الثوم ، أو شجرة الحَنْظل ، أو أى شجرة من مخلوقات الله ونَصِفَها بأنها شجرة خبيثة . فلا شىءَ خبيثٌ من مخلوقات الله .

ونحن حين نجد شاباً يقوم بثَنْى قطعة من الحديد قد يحسبه الجاهل أنه يُسىء استخدام الحديد ، ولكن العاقل يعلم أنه يقوم بِثَنْيها ليصنع منها مَا يفيده ؛ كخُطَّاف يشدُّ به شيئاً يلزمه .

وعمدة الكلمة الطيبة هى شهادة « لا إله إلا الله ، وأن محمداً رسول الله » ومن هذه الشهادة يتفرَّع كل الخير . ومن هنا نعلم أن عُمْدة الكلمة الخبيثة هى الكفر بتلك الشهادة ، وما يتبع الكفر من عناد لرسول الله ﷺ وصدٍّ عن سبيل الله ؛ ومن تكذيبٍ لمعجزات الرسل ؛ وإنكارٍ لمنهج الله .

---

(١) أخرجه مسلم فى صحيحه (٢٧٥٩) من حديث أبى موسى الأشعرى رضى الله عنه .

ولقائل أنْ يقول : مـا دام الحق سبحانه قد قـال إن هناك شجرةً خـبيـثة ؛ فـلابُدَّ أن تُوجَـد تلك الشجـرة ، وأقـول : إن كُلَّ ما يضـرُّ الإنسان فى وقت ما هـو خبيث ؛ فالسكر مثـلاً يكون خبيثاً بالنسبة لمريض بالسكر ؛ وكل كائن فيه حسناتٌ مفيدة ؛ وله جانب ضَارّ فى حالات معينة ؛ وعلى الإنسان المختار أن يُميِّز ما يضرُّه وما ينفعه .

ونلحظ هنا فى وَصْف الكلمة الخبيثة بأنها كالشجرة الخبيثة ؛ أن الحق سبحانه لم يَقُـلْ إن تلك الشجرة الخبيثة لهـا فَرْع فى السماء ؛ ذلك أنهـا مُجْـتثـة من الأرض ؛ مُـخْلخلة الجـذور ؛ فلا سَند لهـا من الأرض ؛ ولا مددَ لها من السماء .

ولذلك يَصفها الحق سبحانه :

﴿مَا لَهَا مِن قَرَارٍ ﴿٢٦﴾﴾ [إبراهيم]

أى : ما لهـا من ثبات أو قـيام ، وكـذلك الكُفْر بالله ؛ ومَنْ يـكفر لا يصعد له عمل طيِّب ، فلا أساسَ يصعد به العمل أو القول الطيب . ولهذا وصـفت الشجرة الخبـيثة بصـفات ثلاث ، أولها : أنها شـجرة خبيـثة وثانيها : أنها عديمـة الأصل بغير ثبات ، وثالثهـا : ما لها من قرار لعدم ثبات الأصل .

ثم يبين الله جل علاه متحدثاً عن حصاد الحالتين ، فالأولى : أمن وأمـان فى الدنيـا والآخرة . والحـالة الثـانيـة : ظلم بضـلال ، وقلق بضنك ، وفى الآخرة لهم عذاب أليم .

ويقول سبحانه وتعالى :